

بعد 45 سنة على وفاته،

استشراف المستقبل من إرث الرئيس فؤاد شهاب

جريدة النهار – 9 ايار 2018

السفير جبران صوفان

مندوب لبنان سابقاً لدى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية في جنيف

يكاد لبنان لا ينجو من المحن والأزمات الدامية وكأنها قدره المحتّم، فنُسَطِر الأحداث تاريخه تناوباً بالحبر الأحمر والأسود. وفي رموز الألوان، ولّع اللبنانيين هذه الأيام، الأحمر هو "مرادف للدم والعدوانية"، فيما "الأسود هو قمة القتامة والإعتماد". وإن حلّ الإستقرار، عاد القهقري، مخلّفاً الساحة للتناحر والتصادم.

فؤاد شهاب نورّ مساحة الوطن سحابة ست سنوات، كان خلالها مثل "الحق أبلج لا تُخفى معالمه، كالشمس تظهر في نور وإبلاج".

كانت ولايته وجيزة نسبياً من حيث متطلبات إقامة دولة عصرية ومستقرة. ومع ذلك أكثر من المؤسسات بعد أن ورث بلداً مشرذمة. ولعله شاء توفير مخزون مؤسساتي شبيه بالإحتياط المصرفي في بوتقة عربية دأبت على التناحر وفي بيئة لبنانية تتأثر بالخارج حتى الإنشطار عند أول خضة.

ولما كان واضح الرؤية، ثاقب النظرة، صدق ظنه قبيل وفاته عندما أسرّ لمرافقه النقيب ميشال أسعد ناصيف عن وقوع "أحداث كبيرة" تؤدي إلى انقسام الشعب واستتباب الفوضى، سائلاً الله المساعدة " إذا تدخلت دولة أجنبية... "

وما هي إلا أيام قليلة حتى رحل فؤاد شهاب بتاريخ 25 نيسان 1973 بلا ضوضاء، أميراً في قيمه كما في سلالته، مسجّى على " سرير حديدي، بسيط" في ظاهرة جريئة حتى الممات لإعادة تعريف " الفخامة " القائمة على القيم وفي مقدمتها التواضع والبساطة والإحتشام والإستقامة والشهامة والأنف وغيرها.

في الذكرى الخامسة والأربعين لوفاته، يظلّ الرئيس الامير اللواء فؤاد شهاب ظاهرة غريبة في نمط حياة اللبنانيين الذين يُصنّفون الرجولة تبعاً لألوان الطاووس أو لقرعة الهدهد، يتخاطبون شتائم ومهاترات عبر آلهتهم المصنوعة على صورة عصبياتهم وتعصّبهم، ولا يسلم إلا القلائل.

أما بعد محاولات تقويض أسس الدولة الحديثة، الواحدة والجامعة والعادلة، منذ غياب مؤسسها، وتعدّد الإنتماءات و "الولاءات" والكيانات التي قفزت فوق الكانتونات، فمن البديهي التساؤل عما بقي من فؤاد شهاب، عدا التاريخ الذي، مثله، لا يثرثر وإنما يؤازر المجتهدين والصامتين؟

ومع التسليم بوهن المؤسسات لافتقارها إلى الحماية السياسية، لا أزال، مثل الوزير فؤاد بطرس " متأكداً من ان خريطة الطريق لبناء الدولة اللبنانية الحديثة والقوية، والوطن الذي يعيش فيه جميع أبنائه في استقرار ورفاهية، لا يمكن أن تكون إلا متطابقة مع تلك التي وضعها فؤاد شهاب والتزم بتطبيقها أثناء ولايته". (المذكرات).

رُبَّ قائل بأن " الشهابية" المقترنة باسم وانجازات فؤاد شهاب تجاوزها العصر، والجواب بسيط يكمن بدعوة اللبنانيين للمفاضلة بين عهد فؤاد شهاب ومؤسسته و " الإزدهار والسلامة والطمأنينة والعزّة " التي طبعت عهده وبين الأحوال التي آل إليها لبنان في ما بعد.

ومع إدراك الرئيس شهاب بأن عملية بناء الدولة هي مسار طويل ومستمر وتتطلب التحديث الدائم، ويستحيل بالتالي تحقيقها في ست سنوات، إلا أننا لا زلنا نستعين بإرثه المؤسساتي ونرثي لأحوالنا عندما نتغاضي عن مبادئه وقيمه. ومثاله، ما برحنا، حتى الأمس القريب نطبق قانون الانتخابات النيابية لعام 1960، أي مدة 57 سنة لحين استبداله بالقانون رقم 44 تاريخ 17 حزيران 2017 المفصل على قدر القامات والهجمات.

لقد عمّر قانون الستين طويلاً بالرغم من قناعة الرئيس شهاب بأن "قوانيننا الانتخابية..... فرضتها أحداث عابرة ومؤقتة" (بيان العزوف عن الترشح تاريخ 1970/8/4). وأتساءل عما إذا كان السبب هو تخاذلنا أم عبقرية فؤاد شهاب؟ أم الإثنين معاً؟

في بلد يرتاح فيه البشر لاستتباب الفوضى وللإخلال بالنظام، يبدو لي بأن فؤاد شهاب أعطى بعقله وقلبه وخطّه وتخطيطه وعسكره، دولة رغم أنف الكثيرين من اللبنانيين، ترسيخاً للإستقلال و"لرخاء ورفاه الجميع، افراداً وفئات ومناطق"، ولا تزال مواصفات تلك الدولة حية، منها ما يلي :

1- الأسس :

الوطن يقوم على " دعائم الأخلاق والعدل والمساواة والواجب،... والحرية..... والمحبة والتضحية والضمير والمسؤولية والكفاءة.... والقضاء على اليسر غير المشروع والتخطيط والعلم، والنزاهة والتجرّد"... وغيرها.

"ولكن الضمانة الأساسية الكبرى لإستقلال الوطن وسلامة أراضيه وحدوده هي دائماً الوحدة بين عناصر الشعب الواحد".

(خطب الرئيس شهاب).

2- "التوازن الحقيقي والتسويات الخطيرة"

اكتسب الحديث الذي اجراه العلامة البروفيسور في القانون الدستوري Maurice Duverger مع الرئيس شهاب أهمية بالغة لحصوله أياماً معدودة قبل وفاته. وبالرغم من ان الجلسة كانت عفوية الطابع، إلا أنها تناولت مواضيع جدية ودقيقة منها مقاربة الرئيس شهاب لمسائل مصيرية تتعلق بديمومة لبنان وهيكلته والتحويلات والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية. ورداً على سؤال يتعلق بمدى قدرة التوازن بين الطوائف في لبنان على الإستمرار في تكوين بنيته الأساسية، أجاب الرئيس شهاب بادئ ذي بدء بالتركيز على أهمية تحقيق التوازن الإجتماعي، التحتي، دون التقليل من شأن التوازن الطائفي الفوقي لأن "المشكلة الأساسية في لبنان، اليوم وغداً، إجتماعية، (مضيفاً)، أرى المشكلة اليوم أكثر إلحاحاً...وحده إرساء العدالة الإجتماعية يُؤمّن للبنان توازناً حقيقياً....وحيث أن الوضع على الأرض لم يتغير، فإن أي حدث يتم عن استياء يمكن أن يؤدي إلى حدوث انفجارات.."

وبدا الرئيس شهاب حذراً من التسويات، إذ بقدر ما تكون " التسوية عاملاً آخر في توفير التوازن، يمكن استخدامها للجم العدالة أو للحيلولة دون نموها، فتصبح بدورها خطيرة".

Chéhab, l'homme et le système, Maurice Duverger – L'Orient-le Jour 19-4-1973

3- الله والأسرة في حياته

في العائلة، فؤاد شهاب أمير من سلالة قريش، تولّد غزير 1902، والدته بديعة طالب حبيش، تأهل عام 1926 من روز رونية بواتيو الآتية أيضاً من بيئة عسكرية. توفيت متعبة، هزيلة بـ 18 شباط 1992، في "البيت الأكثر فقراً في جونية" بشهادة طبيبها آنذاك. (جمهورية فؤاد شهاب – نقولاً ناصيف).

في الوطن، فؤاد شهاب رئيس دولة ومؤسس الجيش، يأوي آخر النهار إلى بيته في جونية، طيلة مدة الرئاسة. ولما استقبل آنذاك في القصر الجمهوري في صربا فرداً من عائلته.

وفي علاقته مع الله، كان الرئيس شهاب رجلاً تقياً، ورعاً، ابناً باراً للكنيسة المارونية، متقشفاً، حتى دُعي بـ "ناسك صربا" (فؤاد بطرس، المذكرات).

علماً بأن آخر كلمة تلفّظ بها على كرسيه قبل أن يطبق عينيه : "ياعذراء".

في الواقع، كانت "سيدة لبنان" رفيقة دربه. يحكي مرافقه العميد ناصيف بأن عين الرئيس شهاب كانت دائماً شاخصة إلى "تمثال حريصا" للتبرّك. وعندما يكون منطفئاً، يشعر بالقلق، فيوعز إليه للاتّصال بالأب بولس نجم لمعرفة السبب. ولمن يجهل، تولّى فؤاد شهاب، بصمت، طوال ست سنوات، تسديد نفقات إنارة تمثال السيدة العذراء في حريصا وجواره من جيبه الخاص. ولأنه كان قريباً من الله، لم يسيّس الدين في الشؤون الوطنية.

4- الديمقراطية

استوقفني في إحدى خطب الرئيس شهاب عام 1963 قوله: "إن أقوى ما في الديمقراطية أنها تستطيع أن تكون، متى شاء الشعب الذي يمارسها، صورة لأرفع ما في تفكيره، وأنبأ ما في حسّه، وأظهر ما في ضميره". أمل ألا نصبح في المَطَهَر قبل أن تصبح هذه الديمقراطية واقعاً في بلادنا.

وختاماً، أردت الإضاءة على بعض القناعات التي دَمَغْتُ فكر الرئيس الراحل فؤاد شهاب في مقاربته الشؤون العامة بمناسبة مرور 45 سنة على وفاته، دون التطرّق إلى نواح أخرى مفيدة، في هذه الأيام، في سياسته الخارجية، كإبعاد لبنان عن المحاور والتحالفات الإقليمية والدولية. فأخلص مع الفؤاد الآخر إلى أنه " الرئيس الوحيد الذي باشر مشروعاً واضحاً لبناء دولة وتحديثها واستمرّ بتنفيذه وصيانتته بترفع وإيمان ومواظبة حتى الدقيقة الأخيرة من عهده". قد يبدو الأمر استحضاراً للأموات، لا بأس في ذلك عندما يكون الأحياء مقصّرين والنواقص غالبية وعامل التضحية نادراً.

يقول المطران المغيّب بولس يازجي ما مؤداه: إن الحب دون تضحية هو رياء. وعليه، عندما نجرؤ على التضحية بدل البحث عن ضحية ونقدّم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ونضع جانباً هستيريا الشعبوية المضلّلة، عندئذٍ نريح الأموات باستشرافنا المستقبل الواعد بعقلانية وواقعية وثبات.

السفير جبران صوفان

مندوب لبنان سابقاً لدى الأمم المتحدة

والمنظمات الدولية في جنيف